مشاركة علماء ومتصوفة المغرب الأوسط في الأنشطة الاقتصادية

كروم عيسى
طالب دكتوراه جامعة عبد الحميد مهري قسنطينة 2

مقدمة

إذا كانت بلاد المغرب الأوسط قد شهدت حالة من الاضطراب السياسي في بعض الفترات التاريخية خلال الثلاثة قرون الأخيرة من العصر الوسيط، فعلى العكس من ذلك فقد عرفت نهضة فكرية و علمية لم تعرفها من قبل، وذاعت شهرتها شرق وغربا، وما يدل على ذلك هو انتشار المراكز والمدارس العلمية بشكل ملحوظ، وكثرة العلماء وزخم إنتاجهم الفكري، وظلت إسهاماتهم العلمية تنتقل من جيل إلى جيل ومن مصر إلى مصر. لهذا كانت معظم الأبحاث و الدراسات التي خصت علماء وشيوخ المغرب الأوسط خلال هذه الفترة تدور حول حياتهم العلمية، وما خلفوه من منجزات فكرية ، إذ جرت العادة أن المؤرخين، والباحثين كثيرا ما يميلون في حديثهم عن شخصية ما إلى ما اشتهرت به، ويغضون الطرف عن جوانب أخرى من حياتهم. في هذه الدراسة سنحاول تسليط الضوء على الجانب الآخر من حياة العلماء والشيوخ بعيدا عن ما قدموه من انجازات في مجال اختصاصهم العلمي، ألا وهو إسهاماتهم في المجال الاقتصادي.

لم يقتصر دور علماء المغرب الأوسط على الجانب العلمي فحسب، بل نجد لهم حضورا في الحياة الاقتصادية أيضا؛ إذ أشارت العديد من المصادر إلى إسهامات الكثير من علماء وشيوخ المغرب الأوسط في مختلف الجوانب الاقتصادية.

كان العلماء والشيوخ يحبذون ممارسة إحدى المهن، ويقدمون مثل غيرهم على اختيار ما يناسبهم من تجارة أو صنعة أو فلاحة، وكان حضورهم لافتا للانتباه في معظم المهن، والحرف، حتى أن بعض المتصوفة و الشيوخ كانت شهرتهم بما مارسوه من الحرف، مثل الشيخ أبو إسحاق بن علي الخياط[1]. ولكن إلى أي مدى شارك العلماء والشيوخ في الحياة الاقتصادية إلى جانب نشاطهم العلمي؟ وما هي أهم الأنشطة التي مارسوها؟ وما هي الدوافع التي جعلتهم يخوضون في المجال الاقتصادي؟

إسهامات العلماء والمتصوفة في النشاط الحرفي

شكلت الحرف في المغرب الأوسط مجالا واسعا لشريحة كبيرة من الناس لاسيما أهل المدينة، حيث يسمح هذا النشاط بإنجاز طلبات المجتمع من الحاجات الضرورية، والحاجات الكمالية التي يطلبها

الناس، مقابل تحقيق أرباح مكنتهم من العيش في مستوى لائق، فأصبح هذا النشاط يشهد إقبالا واسعا من جميع الفئات من أجل تعلم حرفة معينة وفق ظروف كل واحد؛ ومن دون شك فقد سجل العلماء، والمتصوفة، والفقهاء حضورهم في هذا النشاط؛ لكن ما هي أهم الحرف التي اقبل عليها أهل العلم و التصوف؟

أقدم المتصوفة على إمتهان الحرف البسيطة والتي لا تعدوا أن تحقق عائدا يتناسب وحياة الزهد التي تعودوا عليها، حيث احترفوا حرفا تمكنهم من الحصول على قوتهم وقوت عيالهم، من عمل أيديهم والكسب الحلال، والابتعاد عن التوكل على الغير. فقد تقلب احمد بن الحسن الغماري التلمساني (874هـ) بين عدة مهن منها حرفة "الحطابة "، حيث كان يخرج من مدينة تلمسان إلى الجبال، والأراضي التي لا مالك لأحد عليها، ليجلب معه حزم من الحطب يبيعها في السوق، وكان بعضهم يشترط عليه أن يوصلها إلى داره فيفعل ذلك؛ وذكره ابن صعد في موضع أخر فقال عنه " كان أكله ولباسه من عمل يده يفتل الدوم اليابس، ويجعل منه حزما يسارع الناس لشرائه فيعود ببعض على نفسه، ويتصدق بأكثره، لأنه كان على غاية من الزهد، و الورع، و التقشف، في لباسه وطعامه، وفراشه، وكان ذلك كله من عمل يده ."[2] أما صاحب البستان فقال عنه لما سكن ندرومة[3] كان يذهب إلى سوقها يوم الخميس، يملأ إبريقا له بالماء في زمن الحر، ويدور على الناس في السوق يسقيهم[4]، لكنه لم يذكر لنا إن كان يقبض أجرة مقابل هذا الصنيع، أم كان لوجه الله ، وحسب اعتقادنا انه كان كل واحد يعطيه على قدر ما تجود به نفسه.

وكان الشيخ أبو إسحاق بن علي الخياط الذي يعد من كبار الصالحين بتلمسان، والمعاصر ليغمراسن بن زيان جعل الخياطة حرفة له يتعيش منها، حيث كان له حانوت بحي القبابين بتلمسان يجلس فيه للخياطة[5]، ونفس الحرفة كان يمارسها الشيخ أبو العباس بن القطان كان هو الآخر يمارس الخياطة إلا انه كان يشكو الحاجة، ثم انتقل إلى ممارسة التجارة فتحسنت أحواله[6].

و الظاهر أن حرفة الخياطة لم يكن لها عائد مالي وفير، فالشيخ الصالح أبو الزهر ربيع (ت775هـ) كان كاتبا لدى السلطان وبسبب رؤيا رآها جعلته يتخلى عن الكتابة ويتحول إلى ممارسة حرفة الخياطة إلا انه كان يشتكي لأمه ضيق الحال[7].

ومن أكثر الحرف التي عرفت إقبالا كبيرا من طرف المتصوفة، و العلماء هي النسخ و الوراقة ولعل ذلك بسبب ارتباطها بالعلم والعلماء فهي حرفة مكملة للعلم؛ فكان بعضهم يجعل من النسخ حرفة يتقاضى منها أجرة،كأبي الربيع سليمان بن عبد الرحمان بن المعز الصنهاجي المعروف بالتلمساني (ت579هـ) كان يحترف النسخ[8]، ولا يقبل إلا على قدر ما نسخ فان أعطي الزيادة أرجعه لصاحبه[9].

وعلى شاكلته كان الفقيه الصالح المتقشف أبو عبد الله بن البلد من كبار الأولياء، يحترف أيضا النسخ ويعيش بثمن ما يقبضه منها[10]؛وكان أبو عبد الله ابن مرزوق المتخصص في علم القراءات يحترف نسخ المصاحف في حانوته بالقيسارية حتى أن الناس كانوا يتنافسون عليها لتميزه بحسن الخط والضبط[11].

لم يكن الناسخون يكتبون المصاحف فقط، بل كان بعضهم يقوم بتنميقها وتجليدها، وممن وقفنا عليهم يقوم بهذا العمل، الناسخ أحمد بن حسن البلياني التلمساني[12]، الذي نسخ مصحفا للسلطان المريني أبي يعقوب يوسف(695 . 706هـ)[13]،حبسه على الحرم المكي وصفه ابن خلدون بقوله" مصحف رائق الصنعة، كتبه ونمقه أحمد بن الحسن الكاتب المحسن، واستوسع في جرمه، وعمل غشائه، من بديع الصنعة، وأستكثر فيه من مغالق الذهب المنظم بخرازات الدر و الياقوت، وجعل منها حصاة وسط المغلق تفوق الحصيات مقدارا وشكلا وحسنا، واستكثر من الاصونة عليه."[14]

إذا كان الشيوخ المتصوفة مالوا إلى الحرف البسيطة، والزهيدة التي تسمح لهم بالحصول على ما يقتاتون به دون الحاجة إلى البحث عن ما يوفر لهم رغد العيش، فان غيرهم من العلماء امتهنوا الحرف التي أدرّت عليهم بالربح الوفير، ومنهم صاحب الحظ الأوفر من المال والثروة الشيخ الصالح أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ابن النجار، كان يمتلك بدرب شاكر بمدينة تلمسان معامل لحياكة الصوف الرفيع[15]، وما يدل على ثرائه أن أكثر هذا الدرب له ولعماله وخدامه[16].

لا يمكن أن ننهي حديثنا عن دور العلماء الحرفي دون أن نعرج على مساهمة بيت من بيوت العلم، والتصوف، والفقه في ذات المجال إنه بيت المرازقة أصحاب الصيت الواسع في الحياة العلمية، فبالإضافة إلى الجد الأول الذي احترف الفلاحة – سيأتي الحديث عنه لاحقا- فقد وضعوا بصماتهم التي لا تزال أثارها باقية إلى يومنا هذا، ونقصد هنا ما قام به بعضهم من أعمال جليلة في مجال الزخرفة، و البناء، والهندسة المعمارية.

ومن هؤلاء نذكر أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق الذي كان له شرف المراقبة ، والإشراف على بناء جامع سيدي أبا مدين شعيب بتكليف من السلطان المريني أبي الحسن(737-749هـ / 1337 – 1348م) أثناء حكمه لتلمسان، وكان يشاركه في هذه الحرفة ابن أخيه محمد ابن مرزوق صاحب المسند الذي قال" وكان بناؤه على يد عمي وصنو أبي الصالح أبو عبد الله وعلى يدي"[17]، و كان يراقب الأعمال ويرشد العمال والصناع، يقول:"كنت أتفقد الصناع فيه فوجدت يوما الدهان قد فرغ من عمل الأشكال التي في السقف رقما وإحسانا، استأذنني في رقم أشكال الجبس الكائن بداخل الجدرات..."[18].

إن الملاحظة الأولية إلى الحرف التي مارسها العلماء كانت من الحرف التي لا تشغلهم عن مهامهم العلمية، وفي غالبيتها أن طبيعتها تقتضي أن يسمح بممارستها وسط المدينة، فابتعدوا عن الحرف التي تلهيهم عن القيام بدورهم العلمي مثل الدباغة، والجلود، والحدادة، فهذا النوع كان يفرض على أصحابها ممارستها خارج المدينة، أو على أطرافها، بالإضافة إلى انشغال صاحبها طول اليوم.

لا يفوتنا المقام هنا لنذكر مشاركة النساء الصالحات في هذا المجال، ومنهن مؤمنة التلمسانية المرأة الصالحة المتصوفة من أهل تلمسان، غير أنها كانت تقيم بفاس حيث لقيها ابن قنفذ(ت 810هـ) تعيش بما تكسبه من عمل يدها في الغزل ولا تقبل أي شيء من أحد[19].

مشاركتهم في النشاط الفلاحي

تحتاج حرفة الفلاحة إلى امتلاك ارض، و تتطلب بذل جهد كبير، و متسع من الوقت لممارستها، إذ يجب على صاحبها أن يكون متفرغا لها، ، فكيف شارك العلماء والشيوخ غيرهم في ممارستها ؟

أشارت المصنفات الفقهية، وكتب التراجم، و النصوص المناقبية[20] إلى عدد من العلماء والمتصوفة الذين كانوا يمتلكون الأراضي، أو استفادوا من أراضي الإقطاع، فكان بعضهم يعمل فيها بنفسه، وبعضهم استعان بغيره، فهذا أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بابن النحوي (ت 513هـ) ولد في قلعة بني حماد وتوفي بها وأصله من توزر، وهو الذي انتصر لأبي حامد الغزالي عندما أفتى فقهاء المغرب بإحراق كتب الغزالي بأمر من الأمير المرابطي، كان يملك أرضا يعمل فيها بيده ولا يرضى أن يأكل إلا منها[21]. وكان المتصوف أبو محمد عبد السلام التونسي أصله من تونس، نزل تلمسان ومات بها ودفن بالعباد كان يشتغل في الفلاحة، وكان متقشفا يلبس كساء خشن على جلده، ويأكل الشعير الذي يحرثه بيده فإذا اشتهى اللحم اصطاد السلاحف[22].

كان العالم والد أبا العباس احمد ابن الخطيب الشهير بابن قنفذ يملك أراضي وجنات قد تركها له والده[23]، غير أن ابن قنفذ الذي ساق لنا هذا الخبر لم يقل لنا إن كان هو من يقوم بخدمتها، أم استعان بفلاحين آخرين؛ ونفس الأمر ينسحب على الشيخ الصالح أبو النجم هلال بن يونس بن علي الغبريني (ت ق 7هـ)، الذي كانت له أرض محررة بظهائر من بني عبد المؤمن بن علي يتعيش منها، ويصرف أكثرها في الصدقات، ويبدو انه لم يكن هو من يقوم بخدمتها، وإنما كان يؤجرها أو يدفعها مزارعة، بدليل قول صاحب الدراية بأنه كان ملازما للجامع الأعظم، ليله ونهاره للعبادة والدراسة والقراءة[24].

من بين الذين كانوا يملكون أراضي الفلاحة أيضا، نذكر الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي[25]، لما سكن تلمسان أقطعه السلطان يغمراسن بن زيان قطعة أرض بالمدشر

المعروف بترشت، وهو على مقربة من الحنايا، على أميال من تلمسان، ثم تركها واشترى رقعة بالقرب منها فكانت تحرث له وفيها غرس الجنان[26]، والظاهر انه ترك الإقطاع ورفضه لأنه لم يستحل ما كان يستفاد منه باعتبار الأرض ملكا لبيت المال، فكان يرى أنها من الواجب أن تعطى لمن هو في حاجة إليها فهناك ممن يستحقها أكثر منه فيأخذها من يستحقها .

كما كانت لابني الإمام أبي زيد عبد الرحمن(ت743هـ/1342م)، وأخيه أبي موسى عيسى(ت 74هـ/1348م) أرضا اقطعها لهما السلطان أبو حمو موسى الأول وبقي هذا الإقطاع لورثتهما[27]، كما كان جدهما الولي الصالح يعيش بما تجوده عليه ارض يزرع فيها الخضر8[2].

دورهم في النشاط التجاري

شهدت مدن المغرب الأوسط لاسيما تلمسان حركة تجارية منقطعة النظير وذلك بفضل منتجاتها الزراعية، والحيوانية، والحرفية، فضلا عن موقعها الهام الذي يربط الغرب بالشرق و الشمال بالجنوب؛ هذه الظروف ساعدت الناس على الإقدام على ممارسة حرفة التجارة لما كانت تُدره عليهم من فوائد، و كان لأهل العلم سهم وافر في هذا المجال.

لا شك أن كل من يتحدث عن العلماء ودورهم في التجارة، لا يمكن أن يفوت الفرصة للحديث عن عائلة المقري[29]، التي زاوجت بين العلم والنشاط التجاري، فقد أشار ابن الخطيب عند الحديث عن جدهم بقوله " اشتهرت ذريته على ما ذكر من طبقاتهم بالتجارة فمهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار، وتأمين التجار، واتخذوا طبل الرحيل، و راية التقدم عند المسير."[30] فقد أنشأ أفراد العائلة شركة تجارية مهمتها التبادل التجاري، و قيادة القوافل التجارية مابين تلمسان والسودان الغربي[31].

فهذه الشركة كوّنها خمسة إخوة، تجمع بين شق الطريق وتأمينها من قطاع الطرق، خاصة عند توقف القوافل للراحة، والغذاء، وأهم عمل كانت تقوم به هذه الشركة هو حفر الآبار عبر المسلك الذي ينطلق من تلمسان نحو سجلماسة، ومنها إلى ايوالاتن2[3]، واستطاعت الشركة أن تحقق أرباحا كثيرة، إلا أن الظروف السياسية والاقتصادية حالت دون استمرارها، وتركت هذه الأسرة خزانة كبيرة للكتب وغير ذلك ما يعين على طلب العلم ، ورثها الحفيد الخامس لهذه الأسرة[33].

كان عدد غير قليل من الصلحاء والعلماء يمارسون التجارة إلى جانب اهتمامهم بالعلم والتدريس، فمحمد بن أبي بكر بن مرزوق، كان متخصصا في علم القراءات، سجل حضوره في النشاط التجاري حيث كان يبيع السلع في حانوته بالقيسارية الى جانب نسخ المصاحف[34].

كان العالم أبو محمد عبد الله الشريف يأكل من كد يده، فقد مارس حرفة التجارة إلى جانب الخياطة، على الرغم من انشغاله بالعلم حيث كان له باع في علم العقائد، وكان له طلبة يجدون منفعة في

علمه[35]. ومن المتصوفة الشيخ أبو عبد الله الشوذي الاشبيلي المعروف بالحلوي من العباد العارفين نزيل تلمسان، كان يدرس بالمسجد الكائن بخندق عين الكسور خارج القمدين بتلمسان، هذا المتصوف كان يعتمد على في عيشه على ما يتحصل عليه من بيع الحلوى للصبيان[36].

يذكر صاحب الدراية عند ترجمته للشيخ الفقيه أبو علي حسن بن علي بن محمد المسيلي، بأنه كان كثيرا ما يجلس مع عالمين آخرين في الحانوت الموجود بحارة المقديسي في مدينة بجاية، ولكن لم يقل لنا مَن مِن العلماء الذين كان يملك هذا الحانوت، و ما نوع النشاط الذي كان يمارس فيه[37].

الخاتمة

وفي الختام يمكن القول أن كان شيوخ، وعلماء، وفقهاء المغرب الأوسط أكدوا حضورهم القوي في المجال الاقتصادي، وساهموا مثل غيرهم من الناس في بناء الصرح الحضاري للمغرب الأوسط في العصر الوسيط، فكان منهم التاجر، ومنهم الحرفي، ومنهم الفلاح، فتجدهم في دروب المدينة، وفي أسواقها، وحوانيتها، وفي أرباضها منهمكين بأشغالهم، كما تجدهم في المساجد، والمدارس، يؤدون واجبهم العلمي والديني. و نشهد أن المتصوفة والعلماء لم يكن اهتمامهم منكبا على التعبد والانشغال بالعلم، بل مارسوا بعض الأنشطة الحرفية والفلاحية والتجارية التي تتناسب و وضعيتهم الاجتماعية.

كان الدافع الأساسي لبعض الصلحاء يمارسون الحرف من أجل الحصول على القوت اليومي، والأكل من عمل اليد، واغلبهم اختار الحرف البسيطة التي تغنيهم عن التوكل على الغير؛ وتمكن العلماء والمتصوفة الذين زاوجوا بين الحياة العلمية، والدينية من جهة والأنشطة الاقتصادية من جهة ثانية، من تحقيق غاياتهم ولم يكن هذا التزاوج عائقا يمنعهم من تأدية رسالتهم العلمية.

الهوامش:

[1] -الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن علي الخياط ناظم الأرجوزة المشهورة في الفرائض عند بلوغه عشرين سنة من العمر وهو محقق معروف بالفضل والدين؛ (يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، طبعة حجرية مطبعة بيرفونطانا الشرقية، الجزائر، 1903، ص39

[2] -محمد بن صعد، روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، تحقيق يحي بوعزيز، دار البصائر للنشر و التوزيع، الجزائر، 2009، ص 187

[1] المصدر نفسه،صص242،241،40،39،36.

[3] -ندرومة مدينة في طرف جبل تاجرا بأرض المغرب الأوسط، بينها وبين البحر نحو عشرة أميال، ولها مرسى مأمون، (الحميري محمد عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان ، بيروت،1975، ص576)

[4] -ابن مريم الشريف المديوني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مراجعة محمد بن شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1958، ص31

[5] -محمد ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، تحقيق سلوى الزاهري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 2008، ص180

[6] نفسه، ص 161. 162

[7] -ابن قنفذ القسنطيني، انس الفقير وعز الحقير، تحقيق محمد الفاسي و أدولف فور، مطبعة اكدال، الرباط، المغرب، 1965، ص101؛ أبو العباس الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق عادل نويهض، منشورات دار الأفاق الجديدة، ط3، بيروت، لبنان، 1979، ص 27

[8] -وردت في بعض النسخ النسج و في بعضها النسخ ، (يحي بن خلدون، المصدر السابق، ص38)

[9] -يحي بن خلدون، المصدر السابق، ص38

[10] نفسه، ص55

[11] -ابن مرزوق الخطيب، المناقب المرزوقية، ص148

[12] لم نقف على ترجمة له

[13] استولى السلطان المريني أبي يعقوب يوسف على المغرب الأوسط، وبنى من القرب من تلمسان مدينة سماها المنصورة، (محمد بن عبد الله التنسي، نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص1985، ص211، ص130)

[14] -عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج7، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2000، ص299.

[15] -محمد بم مرزوق، المناقب المرزوقية، 188

[16] نفسه، 181

[17] -محمد ابن مرزوق، والمسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، تحقيق: ماريا خيوس بغيرا، موفم للنشر، الجزائر، 2011، ص 403

[18] نفسه، ص 287

[19] ابن قنفذ القسنطيني، ص80

[20] -من أهم الكتب المناقبية التي اهتمت بذكر الأنشطة الحرفية والفلاحية المسند لابن مرزوق الخطيب، بغية الرواد ليحي بن خلدون.

[21] ابن قنفذ القسنطيني، ص 108؛ابن الزيات التادلي ،التشوف إلى ر رجال التصوف،تحقيق احمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة، ط2، الدار البيضاء، المغرب ، 1997، ص95

[22] نفسه، ص110

[23]- ابن قنفذ القسنطيني ، المصدر السابق، ص47

[24]- أبو العباس الغبريني، المصدر السابق، ص185

[25]- الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي: الإمام العالم الفقيه الشيخ الصالح الفاضل، انتهت إليه رياسة التدريس والفتوى في قطر المغرب كله، ترد عليه الأسئلة من بلاد افريقية وغيرها، كان السلطان يخطبه لسكنى تلمسان فيمتنع ، فقد كان يتردد عليها وينصرف إلى تنس، توفي بتلمسان، (احمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق عبد الحميد عبد الله الهرامة، ج1، منشورات الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1989، ص38)

[26]- محمد بن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص280

[27]- نفسه، ص280

[28]- نفسه، ص 71

[29]- عن هذه العائلة وما قامت به في المجال العلمي يرجع إلى، (نصر الدين بن داود، بيوتات العلماء بتلمسان من القرن 8هـ / 13م إلى 10هـ /16م أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه ، قسم التاريخ والآثار، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان، 2009 – 2010 ، ص57).

[30]- لسان الدين الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق عبد الله عنان، ج2، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1984، ص192

[31]- نصر الدين بن داود، المرجع السابق، ص272

[32]- نفسه، ص 272

[33]- لسان الدين الخطيب، المصدر السابق، 193

[34]- محمد بن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص148

[35]- أبو العباس الغبريني، المصدر السابق، ص195

[36]- يحي بن خلدون، المصدر السابق، ص65

[37]- أبو العباس الغبريني، المصدر السابق، ص36